لفظة «ملتمة» التي تتقفى وإياها ايقاعياً. أما في المقطع الأخير، فنشعر بـأن البيتين الاستهلاليين قد اتيحت لهما قافية متمكنة غير ناشزة:

أحبائي، مصابيح الدجى، يا اخوتي في الجرح
ويا سر الخميرة، يا بذار القمح.

بيد أن المقطع كله لا يستمر على هذه الوتيرة من الجودة.

وعلى أية حال من الأحوال، فإن في هذا كله ما يؤكد أن قدرة فدوى على دعم عناصر القصيدة في كلية متراصة محشودة الجوانب في خدمة المعنى، ليست بالقدرة الواهية، ولو أنها لا تنجح دائماً وفي المواضع كلها.

الطاقة المجازية، أو كثافة اللغة

أورد الجرجاني، في كتابه «دلائل الاعجاز»، ما نصه: «وإذ قد عرفت هذه الجملة فها هنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول: المعنى ومعنى المعنى ، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل به بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر».

نستقرىء،من هذا النص الصغير، أن الجرجاني يذهب إلى وجود معنى باطن يضايف المعنى الظاهر ويحل فيه، أو إلى أن كل كلام فني – فضلاً عن معناه الظاهري القائم على السطح – يحمل في احشائه معنى ملازماً ومباطناً للمعنى الظاهر. وبايجاز، ثمة محايثة في المعاني هي الفاعلة في جمالية النصوص. ولقد فات الجرجاني أن يبين المبدأ الذي تقوم عليه هذه المضايفة، وهو اللامنطقية التصويرية، أقصد تأسيس العبارة الفنية على نحو غير منطقي في ظاهره، بمعنى أن العقل لا يرضاه كحقيقة، بل كمجاز وحسب. فحين تقول فدوى، مثلاً: «الوقت فاقد هنا نعليه»، نراها تجسد الوقت أولاً فتجعل منه كائناً ذا نعلين، وبالتالي ذا قدمين يسير، أو يمكن أن يسير، عليهما، ولكنه أضاعهما، في هذا المقام، فلم يعد يملك القدرة على الحراك .هذا هو المعنى بكل وضوح. وهو إجراء عقلي ينجزه الخيال بناء على نهج غير منطقي، أي هو ما لا يمكن للعقل الذهني أن يقبل به على الاطلاق إلا بوصفه صورة لا كحقيقة. أما معنى المعنى، وهو ما به ننتقل من المنطقية إلى اللامنطقية، فهو أن الوقت ساكن ثقيل الوطأة لا يتحرك.

إن الصورة الفنية لا يسعها قط، وليس في ميسورها البتة، أن تكون جميلة وفريدة إلا بقدر اعتمادها على «معنى المعنى»، أي بمقدار ما تخدم – عبر لا منطقيتها – في انجاز معنى حامل بمعنى آخر هو المقصود بلوغه.

يمكن للنقد الفني، نقد الطاقة المجازية، أن يصنف شعر فدوى طوقان كله في ثلاثة أصناف، أولها ما يفتقر افتقاراً واضحاً إلى الكثافة والتصوير الناجح:

وهب مازن الفتى الشجاع
يحمل عبء حبه
وكل هم أرضه وشعبه